

المؤلف/ محمدإسماعيل شريف

الناشر/ مركز الحضارة العربية للإعلام
والنشر والدراسات

Page 1

رقم الايداع/ 23839

الترقيم الدولي/ 3-348-496-9778

تنبيه

هذا العمل واقعي اجتماعي استخدمت اللغة فيه كوسيلة وليس غاية, لذلك إن كنت تريد قراءة عمل بياني فعليك بغيره , هذا عمل تدور أحداثه في الريف المصري ولذا فأحداثه وشخصياته لم تشجعني علي كتابته بشكل بياني كما قلت لك وأكرر.. اللغة ليست غاية في هذا العمل بل وسيلة..

وأمر آخر وهو ان هذا العمل أول عمل لي وهو إهداء لزوجتي ميار .

.

تمهيد

تأتي علي الإنسان أوقات يشعر فيها بالحنين لماضيه, لمواقف شبابه وصباه بل وطفولته, أو لأيام كان فيها صحيحا

معافيً قبل أن يستبد به المرض
ويضعفه, وربما لأسباب أخري كذلك...

حتي وإن كان حاضرك الذي تعيشه أفضل
من ماضيك, لكنك تحن لأشياء بعينها,
لأوقات بعينها, لمواقف بعينها, تتمني لو
أن يعود بك زورق الزمان القهقرا
لتعيشها مجددا ..

لايكون الدافع منك لهذا الحنين بشكل
شخصي لأسباب أنت تعيشها في حياتك
الخاصة أحيانا ,بل ربما حياتك العامة
وتعاملاتك مع الناس من حولك, فتتذكر
أيام أن كان مجتمعك وبيئتك متخلقة
بطباع هي أفضل مما هي عليه في
حاضرك ,من حيث الألفة والبساطة والود
والجمال الداخلي, وأقصد بالجمال
الداخلي هو جمال النفس بالسر وجمال
الروح قبل أن تشوهها ظروف الحياة
القاسية..

فتقارن لاشعوريا بين حاضرك الذي
تعيشه وبين ماضيك الذي تلاشي
وانتهي, ودعني أوضح لك بأن الجمال
فيما مضي ليس هو الدافع الوحيد لتتذكر
الماضي وتحن إليه, بل ربما هناك
مايؤرقك من قساوة ماضيك وتلازمك

Page 3

تفاصيله في حاضرك أيضا دون استطاعة نسيانه..

فبين التذكر للجميل المتصرم وبين التذكر للقبيح القاسي تترنح ذكريات المرء نحو ماضيه, والأمر نسبي عند الناس ومتفاوت بالطبع..

لكن دعني أذكرك بشيء مهم أيها المصاب بالنوستالجيا..

بل وأذكر نفسي معك أيضا بأننا لن نستطيع اختراق جدار الزمان لنعود للماضي, فنحن لسنا في رواية خيال علمي وإنما نعيش واقعا يجب أن نتنبه له كي لا تضيع علينا فرص الحاضر النادرة !

فلا أحد يستطيع إعادة الماضي ولا يستطيع معرفة المحتجب عنه في مستقبله لينشغل به بأن يصنع جسور الأوهام المعلقة بين الماضي والمستقبل , وإنما عليه فقط أن يجيب علي سؤال مهم وهو :

ماذا أعددت لحاضرك ؟

هنا تكمن معني الواقعية بعيدا عن الخيال والمثالية.

Page 4

المؤلف

****

الفصل الأول

الخامسة مساءا ..أذان المغرب قد وجب وقت أن وضعتُ الهاتف من يدي أمامي علي المنضدة, مكالمة من صديقي حسان أخبرني فيها أنه بالمدينة لزيارة أحد أقربائه لشيء مهم, وأخبرني بأنه يريد مقابلتي, كنت جالسا في كافتيريا الفراعنة كعادتي أحتسي فنجان القهوة وأتصفح مجلة بيدي, الآن أنا في انتظار حسان ...

المكان من حولي مليء بالدخان وروائحه المختلطة بين نكهات فواكه مختلفة وأشياء اخري, شعرت بأنني في سوق الفاكهة أشم روائح المنتجات الزراعية ولست في مقهي!

Page5

الكثير من الشباب والفتيات يتجاذبن الحوارات وقهقهات عالية كصوت التلفازالمرتفع بالموسيقي والاغاني, فجأة يقاطع ذلك كله أذان المغرب من زاوية قريبة وكأن الميكروفون بيننا بالمقهي, خفض العامل صوت التلفاز وسكن البعض احتراما لصوت الأذان , فكرت في شيء وقتها مر بخاطري وهو:

الناس في بلدي يحترمون الأذان فيخفضون أصوات المذياع وكتم الصوت علي الأغاني وكثير منهم لا يذهب للصلاة او ربما حتي لا يصلي ببيته ومحله؟!

قلت لكن هذا شيء جميل في طباع الناس عموما لأنه سلوك جماعي يلقي بوسامته علي المجتمع ويضفي عليه طابع التدين فضلا عن سلوك كل شخص بعينه وهذا امر آخر تماما ...

قطع تفكيري دخول حسان صديق الطفولة...

: مرحبا ياصديقي الجميل

:مرحبا محمد كيف حالك وما هذا المكان الذي تجلس فيه ؟

أخذ يقلب حسان بصره في المكان معجبا بالديكور بعد ان تعانقنا وتقابلنا بالود

قلت له : هذه كافتيريا الفراعنة من بين الاماكن المفضلة لي ياحسان وكما تري الديكور حولك كانك بداخل معبد فرعوني حقا, رسوم وتصاوير ونحت علي الجدران بألوان المعابد الفرعونية, هكذا الناس يتفننون لجذب زبائنهم ياحسان ..

إجلس تعالي أنرت المكان ياصديقي ماذا تريد ان تشرب ؟

: فنجان قهوة مظبوط بن سادة من فضلك .

ناديت النادل وطلبت منه شايا وحجر دخان تفاح لي وقهوة لحسان , إبتسم حسان وسألني عن التدخين فهذا من التغيرات الطارئة عليّ في فترة غياب حسان باليونان , ذكرته بتغيرات الحياة التي لكل منا منها نصيب كبير حتي أخذت أستعرض كثيرا من المتغيرات في القرية التي كنا فيها أطفالا نمارس الحياة بكل تفاصيلها سويا..

قاطعني حسان قائلا:

Page 7

يكفيك تفلسف يامحمد كعادتك ولا تنس بأن الفلسفة هي تخصصي !

إبتسمت وقلت له بأنني أدخن للترفيه فقط منذ عدة أشهر من باب الفضول وحب الاستطلاع لتلك الظاهرة الغريبة وهي الدخان بطعم الفواكه..

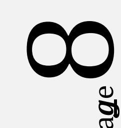
ضحك حسان بصوت مرتفع وقال : لا زلت طفلا ياصديقي تتعلق بكل شيء كما كنت منذ الطفولة أيام مغامراتنا بالحقول مع الفلاحين هل تتذكرها ؟

: أتذكرها !!

كل شيء محفور بالذاكرة ياحسان حتي موقفك وانت فوق شجرة التوت تتأرجح علي الغصن لتسقط لنا حبات التوت الطازجة ..يوم أن جرينا جميعا وهربنا لما رأينا الفلاح يقترب وتركناك وحدك لا تدرك ماحصل...

إنفجر حسان بالضحك وقال : يااااه كانت علقة ساخنة من الفلاح ثم علقة أخري من والدي يومها !

كنت ندلا يومها يامحمد لما تركتني وجريت ..



: لا ياصديقي لم أكن ندلا بل خشيت أن اناديك فينتبه الفلاح لك, وظننت أنك ستفهم وتختفي بين الأغصان حتي يمضي الفلاح بعيدا لتمضي في سلام...

: امم سامحتك ياعم محمد الآن هههه

أخذت نفسا من الشيشة وأخرجته فكان الدخان كسحابة بيني وبين حسان , ضحك متعجبا وهو يهش الدخان عن أنفه ويقول في مرح ومزاح : الله ينور ياعم التنين هههه

: فعلا ياحسان أشعر بأني كذلك, تنين مجنح ... وأخذنا نضحك سويا في جلسة لهو فريدة من نوعها والسبب أن كلينا كان يشعر بالشوق للآخر...

ثم بعد الضحك تبادلت معه الحديث لمدة ساعة عن بعض تفاصيل عمله في اليونان في إحدي المطاعم وعن زواجه المفاجيء الذي أخبرني به الشيخ سليم بركات وأنا في ضيافتهم بمسجد القرية هو والشيخ محمد علم الدين..

وأخذ يقص عليّ بعض التفاصيل والمواقف والمشاهد حتي شرقنا وغربنا في الحديث بلا ترابط أحيانا, حسان

Page 9

صبحي صديق الطفولة منذ أن كنا نحفظ القرآن علي يد الشيخ محمدعلم الدين بمسجد القرية الكبير, رغم انني لست من نفس قرية حسان وهي قرية الستاموني بمركز بلقاس دقهلية, وبلقاس هي مدينتي التي نشأت فيها ومنها الآن أقص عليكم تفاصيل تلك الجلسة مع صديقي العائد من اليونان بعد سنين طويلة انقطعت اخباره عني , كنت أنا أيضا تغربت عدة سنوات في إحدي الدول العربية لبناء مستقبل يسعي الكل لبنائه وكأنه غاية الخلق توحدت وجهات الناس نحوه !

ولأنني مازرت القرية من حوالي سبع سنوات وهي مدة غربتي فما كنت أعرف عن حسان شيئا إلا أنه في سفر, ولا أدري أين موقعه الجغرافي , كان والدي تاجرا مثل والد حسان وهذا سبب الترابط بيني وبينه من أول يوم اصطحبني والدي معه للقرية, ومع الوقت كنت أذهب للقرية وحدي أحيانا وأحيانا مع والدي حتي صار الطريق للقرية بالنسبة لي كشارع بمدينتي ..

سكت حسان برهة وسألني بجد :

Page 10

مارأيك في جوازة ياسمين ؟

سؤاله فاجأني وقلت له لارأي لي في موضوع كهذا ياحسان , كنت أشعر بأن هناك دافع خلف سؤاله !

ومن باب الفضول لمعرفة الدافع سألته بدوري :

مارأيك أنت في جوازة ياسمين ؟

إبتسم ابتسامة صفراء وقال :

أنا متعجب جدا كيف وافق الشيخ محمد بعقليته وفهمه علي هذا العريس ؟

: ماله ياحسان العريس أنا لا أعرف عنه شيئا غير أنه ابن الأستاذ طارق مرعي الظابط السابق بالجيش وهو رجل محترم والقرية جميعها تحترمه, حتي أنه من بين رجال الجلسات العرفية لحل أي مشاكل بين الناس, وأعرف من الشيخ محمد بأنه أيضا من بين أعضاء لجنة بناء المضيفة و......

قاطعني حسان منفعلا وقال:

سألتك عن محمود ابنه وليس عن الأستاذ طارق نفسه يامحمد !!

: طبيعي ياحسان الشيخ محمد وافق بهذا المبدأ وهو النسب المشرف , لو لك رأي آخر وضحه لي !

: محمود طارق من الشباب الغير صالحين بالقرية وماكان ينبغي أبدا انه يتزوج البنت البسكوتة المسكينة ياسمين

: عرفت منين ياحسان؟

انت متغرب من سنين ومحمود ليس من جيلنا أساسا ؟

: عرفت وخلاص يامحمد ... محمود خارج القرية غالب حياته مابين الاسكندرية عند عمته وبين القاهرة عند أخيه الأكبر وبالتالي هو لم يظهر كثيرا بالقرية وربما الشيخ محمد لم يعرف عنه أنه من مدمني المخدرات .

:مدمن ؟!!

ياخبر اسود!!

انت متأكد ياحسان ؟

: طبعا

: والعمل ؟

الفرح بتاعهم بعد أسبوعين وكتبوا الكتاب خلاص !

: عشان كدا يامحمد ماعاد ينفع لنا أي تدخلات ولكن تذكر بأن الجوازة دي مش ناجحه

: ياأخي نتمني الخير هذه بنت يتيمه ومسكينه ولا نتوقع لها الشر والسوء

: إنت طيب مثل شيخك تماما وقلوبكم نظيفة نقية يامحمد ولذلك أمثالكم في تلك الحياة يلقوَن خيبات أمل كثيرة

: ما سبب هذا الكلام ياحسان ؟

: السبب إن الشيخ محمد علم الدين هو اللي اتخذ القرار بزواج ياسمين مهاب من محمود طارق قبل امها وأخوها حتي , انت تعلم قرب الشيخ منهم منذ موت الأستاذ مهاب رحمه الله, ودا الشيء اللي انا حزين منه وهو ان محمود مهاب اتبع الشيخ محمد في الموضوع دا, وكل خوفي تحصل مشاكل ويفقد الشيخ محمد مكانته عند الست ام ياسمين وولادها ..

: الخير يقدمه ربنا ياحسان وأعتقد اللي بينهم أعمق وأكبر بكثير.. لكن أخبرني ماسبب زيارتك المفاجئة للمدينة ؟

الفصل الثاني

في أواخرديسمبر عام 1996م

الشتاء في ذلك العام كان قاسيا جدا,
شديد البرودة والمطر يهطل بالأيام
والليالي لا يتوقف إلا قليلا, البرق والرعد
يرهبان الأطفال في البيوت, بل والكبار
في حقولهم وأعمالهم خاصة بعدما
سمعوا بمصرع بهيمة وسط الحقل بسبب
البرق الذي أصابها, يقولون بأنها شقت
نصفين وكان حديث الناس وقتها لفترة
طويلة جعلت الناس يخوفون الأطفال من
التعرض للبرق خصوصا وسط الأجران
والأماكن المفتوحة الخالية ,الناس منذ
المغرب في بيوتهم وتحت فراشهم
يستدفئون بوابور الجاز المشتعل ليل
نهار حتي تسمع أصواتها من الخارج,
كنت أحب مشاهد النار المشتعلة في
الأخشاب الجافة في الأواني الصاج

الواسعة أمام البيوت كما لو كانت القرية قبيلة مجوسية تعبد النار كل ليلة !

الذي كان يشغلني جدا يامحمد هو أن الست اعتماد كانت في شهرها الأخير في الحمل, كنت دائما أسأل أم محمود زوجتي عنها ونتخوف من أن يأتيها المخاض في تلك الأجواء لأننا سنضطر للذهاب بها لمستشفي بلقاس العام وهي تبعد عنا نصف ساعة, المشكلة ليست في الوقت بل في الطريق!

طريق ضيق مزدوج ذهابا وإيابا, والسيارات والجرارات الزراعية وعربات الكارو وغير ذلك علي الطريق فضلا عن منحنياته الخطرة ,وأنت تعرف ذلك بما أنك تروح وتجيء عليه باستمرار , كثيرة هي الحوادث التي حدثت ومات بسببها الناس , لمجرد أن تخرج المركبة عن مسارها يمينا تسقط في الترعة ,أو شمالا تسقط في البحر ووسط الحقول!!

ولك أن تتخيل مع هذا الجو الموحل والضباب مايكون عليه طريق كهذا !

ورغم كل هذا التخوف بينما أنا غارق في الدفء تحت لحافي انا وأم محمود وكانت يومها مصابة بدور برد شديد إذ سمعت

الباب يُطرق بقوة, انتبهت وقلبي يرتجف من الصوت, كانت أم محمود بدورة المياة تقيء بشدة, كنت بين أمرين وهما أن أقف معها وامسك برأسها وأساعدها كعادتنا حين يقيء أحد بجانبنا, وبين الباب الذي يطرق بقوة, كان المطر يحدث ضجيجا في المشمع البلاستيك فوق السطح, بعض من خيوط مائية تتدلي علي الجدار في الصالة من السقف من ثقب بالمشمع فوضعت تحته طشت الومنيوم ..

من بالباب ؟

: إفتح ياشيخ محمد انت نايم قتيل ؟

: من ؟

: أبوك عبد الكريم ياجدع افتح ..

شعرت بالاطمئنان وقت ان علمت انه عبد الكريم , خرجت أم محمود من دورة المياة تلف جسدها ببطانية ثقيلة وهي ترتعش, قالت صوت عبد الكريم ياشيخ محمد لعله خيرا !

وكان عبد الكريم هو ناقل أخبار القرية الحسنة , فلان عُرسه يوم كذا, فلانة ولدت ولدا, فلان عاد من السفر ...

Page1

وهكذا ...وكان الناس يكرمونه بالخبز والطعام الذي يرسلونه له إلي داره ا

لبست ثيابي ولففت وجهي جيدا وفتحت الباب فلفحتني موجة برد من الخارج بها لسعات من قطرات ماء المطر, دققت النظرفي الظلام فرأيت عبد الكريم علي حمارته العرجاء بجوار البيت لايظهر منه سوي عينيه كالخيمة فوق حماره وله ظل عملاق علي الجدار !

قال لي :بسرعة ياشيخ محمد الست اعتماد جالها الطلق وأخدها الحاج جمعه وابنه ياسر ومراته في العربيه علي مستشفي بلقاس ..

آااااه

وقع ماكنت أخشاه في هذه الاجواء ياأم محمود

كانت خلف ظهري لتعرف ما الخبر ..

طيب ياحاج أنا هالحق بهم حالا ..

ودلفت للداخل ألبس كل ماهو امامي من ثياب وانا افكر كيف اترك ام محمود وحدها بالبيت في تلك الساعة, كانت الساعة العاشرة مساءا وهذا معناه ألا

احد علي الطريق ولكني ما وجدت حلا سوي أن أخرج , ربتت زوجتي أم محمود علي كتفي وطمأنتني بانها بخير ولا ينبغي أن انشغل إلا بالست اعتماد في تلك الظروف الصعبة, خرجت بيدي المصباح نحو الطريق الرئيسي , أقفز فوق الحجارة لأتحاشي الطين والوحل, كنت أخطيء تقدير المسافة فتغوص قدمي بالماء , وأحيانا أظن كومة من الوحل حجرا فأقفز عليها لأجد فردة حذائي غاصت في الطين, قطعت مسافة خمس دقائق في ثلث ساعة, الكل نائم له غطيط , لم أسمع سوي نباح الكلاب من بعيد, وبعض البهائم تستعرض أصواتها حين نام أصحابها وكأنها تعلن امتلاكها للقرية, وصوت ديك كاذب يؤذن للفجر في العاشرة مساءا لعل ساعته خربت!

وقفت علي الطريق أرتجف بجوار شجرة كافور عملاقة يرتجف ورقها مثلي تماما , ربع ساعة مضت لا أري إنسيا ولا حتي جنيا !

قعقعة بالبحر خلفي جعلتني ألتفت لأري ما هذا ؟

نظرت حولي فلم أجد شيئا, بمعلوماتي القليلة كرجل يعيش في القرية أن السمك في البرد لا يطفوا علي السطح فماهذا ؟

طقطقات ماكينات الري في البر المقابل لي تبعث بالبهجة بأن هناك حياة ما لا زالت موجودة , خرج عمنا عبد الكريم فجأة يشق الضباب ويسألني هل لا زلت واقفا ؟

كان سؤالا ظريفا كشخصيته, قلت له مازحا لا أنا لست هنا

قال لي : تعالي اركب خلفي علي الحمارة لأوصلك بلقاس

تعجبت منه هل يتكلم بجدية ؟

قلت له : حمارتك هذه ياعبد الكريم ستوصلنا بلقاس في مطلع الصيف

غضب عبد الكريم وقال: والله لو كنت وافقت لكنت وصلتك في عشر دقائق والسر عند الله

: ونعم بالله يامولانا عبد الكريم , وضحكت من كلامه

تركني وانصرف عائدا لبيته وكان المطر قد انتهي , أصوات الكلاب من بعيد

تقترب تقترب ومعها صوت محرك يشبه الموتسيكل ؟!

فكرت ..من بتلك الساعات يقود موتسيكلا علي طريق كهذا ؟

فعلا وجدت رجلا علي موتسيكل أزرق اللون قديم هالك ..

: السلام عليكم ياشيخ.. واقف ليه كدا ؟

: عليكم السلام.. أختي تضع مولودها في مستشفي بلقاس ويجب ان أكون معها

: انا رايح قرية أبو دشيشه تعالي معي وربك يعدلها من هناك يمكن تلاقي مواصله

ركبت خلف الرجل واحتميت وراء ظهره من البرد , كنت أشم رائحة السمك في ثيابه وقلت في نفسي لعله صياد, خصوصا هو عائد من اتجاه البحر المالح حيث القري الساحلية واشتهارهم بالصيد ..

عشر دقائق وصلنا لقريته ابودشيشه لكنه لم يتوقف, وظننت بأنه نسي فذكرته

: هذه بلدتك ياشيخ

: فأجابني بعلو صوته كي أسمعه وقال
سأوصلك والامر لله ياشيخ

شعرت بالحرج الشديدمن فعله سبحان الله, وعندما وصلنا للمستشفي وقفت أشكره علي فعله فقال لي بأن من الدين والأخلاق أن اوصلك ولا اتركك وأختك تلد , طلبت منه أن ينتبه للطريق أثناء عودته وشكرته مجددا وهرولت للداخل حيث قسم النساء والتوليد ..

وصلت للقسم وفي الطرقة هناك رأيت الحاج جمعه وابنه ياسر يقفان وصوت الحاج جمعه جهوري ومميز يحدث فوضي بالمكان , كان رجلا طول بعرض, خرجت الممرضة تهديء من روعه بينما انا أستفهم ماسبب الغضب وما أخبار الست اعتماد ؟!

وعلمت انها وضعت بنتا ومعها بالداخل الست فهيمة ام ياسر زوجة الحاج جمعه وشعرت بالاطمئنان شيئا ما ..

ودار الحوار بيني وبين الحاج جمعه لما سألني

: إيه خرجك من بيتك في الوقت دا
ياشيخ محمد احنا كلنا معاها والعربية
تحت رجلينا؟

: لا يمكن اترككم وانام

: فيك الخير دايما يابو محمود

: كنت بتزعق ليه يابو ياسر ؟

: الدكتور بارد وقاعد في حجرته علي
المكتب وسايبها تصرخ وبيقول هاجيلها
لما العيل ينزل, طب دا كلام ياعم الشيخ؟

إفرض بتصرخ من حاجه تانيه؟

: هدي نفسك ياحاج جمعه الدكاتره لازم
بيكونوا بالهم طويل وبعدين الحمد لله
ولدت بالسلامة..عقبال ولاد ياسر

خرجت ام ياسر نحونا تبتسم وهي تحمل
الرضيعة علي يديها ملفوفة ببطانية
ناعمة وتقول ماشاء الله صلوا ع النبي ..

حملت البنت بين يدي ونظرت في وجهها
وفجأة انتابتني حالة هستيرية من البكاء
وأخذوا يهدئونني وتقول أم ياسر لي :
الله يرحمه ياشيخ محمد المهم الست
قامت بالسلامه.

الفصل الثالث

تغيرات كثيرة طرأت علي القرية منذ آخر مرة كنت فيها!

الترعة قد ضاقت قليلا علي مايبدو رغم توسعات في الطريق..هذا رائع حقا ليت الطريق يتوسع ضعف المسافة العرضية لكن كيف ذلك ؟

ذاك البيت الذي هناك صار ثلاث طوابق بالحجارة والمسلحات يااااه , كان طينيا معرشا بالخشب والقش فيما مضي!

حتي المحلات اختلفت وصارت تشبه محلات المدينة ولا شيء يفرق في ثياب الناس في القرية والمدينة في عام 2010 ..

الآن الفلاح يذهب بالموتسيكل للحقل هذا مضحك , وأصبح الكثيرون من أبناء الفلاحين أصحاب حرف ومهن غير

الزراعة منذ سنوات طويلة , تري ما حال المسجد الكبير الآن ؟

ماهذا التغير الكبير للمسجد هذا مدهش!

المسجد كان ساحة كبيرة بنفس منسوب الشارع , كان عبارة عن أربعة جدران وسقف فقط.. الآن ثلاثة طوابق ومرتفع عن منسوب الشارع بمتر ونصف تقريبا حتي تصل لدورات المياة , ثم سلالم عن اليمين والشمال علي شكل قوسين بارتفاع ثلاثة أمتار حتي تصل لصحن المسجد حيث الصلاة !

ومصلي النساء له باب خلفي وسلم لباب السندرة حيث ارتفاعها من صحن المسجد مترين ونصف أسفلها ومترين للسقف , وطابقين إضافيين واحد لتعليم القرآن والثاني في المستقبل يكون عيادة للفقراء تخصصات مختلفة, هكذا كما قيل لي ...

شكل المسجد في القرية هو هو شكل المسجد بالعاصمة, التطور الثقافي في القرية سريع جدا رغم أنني لاحظت صفا واحدا في صلاة العصر بينما المسجد بنفس المساحة في السابق قبل إعادة بنائه كان المصلون ثلاثة صفوف !!

Page 2

هل ارتفاع المسجد سبب في ذلك وعدم قدرة الشيوخ والمرضي الوصول لساحة الصلاة أعلي أم هناك أسباب أخري ياتري ؟

المهم علي الآن أن أذهب لحجرة الإمام لأسأل عن الشيخ محمد ...

السلام عليكم ياشيخ

: عليكم السلام

: كنت أود ان أعرف أين الشيخ محمد إمام المسجد؟

: إمام المسجد ؟ اممم أنا إمام المسجد منذ سنوات واسمي سليم بركات

: مرحبا لكن أعتقد أنه في سن المعاش الآن

: نعم نعم فهمتك أنت تسأل عن شيخنا الشيخ محمد علم الدين ؟

: نعم بوركت أين أينه ؟

: تفضل معي هو في حجرة المكتبة كان يصلي معنا الآن

: لم أنتبه له أود مقابلته

السلام عليكم ياشيخ هناك رجل محترم يسأل عنك لعله غريب

: مَن هناك تفضل

: يااه ياشيخ محمد الحمد لله غنك بخيرأنا سعيد اليوم بمقابلتك ..

: لا تؤاخذني أنااااا

: أنا محمد إبراهيم من بلقاس صديق حسان صبحي كنا نأتيك منذ......

: حبيبي يامحمد أين كنت يارجل طوال السنين ؟!

قبلت الشيخ وعانقته وقبلت يده فهو من علمني القرآن وكثيرا من الأحاديث النبوية الشريفة ومنه تعلمت بعض مانفعني في حياتي , الشيخ تغير كثيرا لقد غزا البياض شعره ونحف جسده كثيرا وارتخت جفونه ولقامته انحناءة ماكانت موجودة !!

: شكلك تغير يامحمد نظارة ولحية علي وجهك تخفي ملامحك الأولي التي أعرفك بها

: لعلك بخير أيها الشيخ الوالد الحكيم
كيف أنت وكيف محمود ولدك وأم محمود
لقد اشتقت إليكم كثيرا

طأطأ الشيخ رأسه وسكت وتمتم بكلمات مافهمتها..

غمزني الشيخ سليم وهو شاب ثلاثيني علي مايبدوا ويكبرني ببعض سنوات قليلة وهمس لي بشيء مافهمته , نظر الشيخ محمد لسليم وقال له اعمل شاي لنا ياشيخ سليم وافتح الشباك .

وأخبرني الشيخ بأن زوجته ماتت منذ أربع سنوات بعدما عاد محمود إبنه من لبنان بسنة ونصف وتزوج وانجب بنتا, حزنت لأجلها وتذكرت معاملتها لي أيام الصبا, كانت حنونة جدا كوالدتي وكنت أقضي لها ما تحتاجه برا بها وبالشيخ ...

فتح الشيخ سليم الشباك فأتت نسمات الجو برائحة الورد المزروع في طرقة بساحة المسجد , كانت الحجرة مغطاة جدرانها بالكتب , وتربيزة وكراسي لمن يجلس للبحث والقراءة, وجلسة خاصة بالشيخ لازالت له حتي بعدما احيل للمعاش ..

عرفني الشيخ محمد علي سليم وقال :

سليم بركات كان منذ صغره من رواد المسجد وهو من كنت أعتمد عليه في وقت ما ليفتح المسجد ويؤذن وكان يؤم الناس مكاني حين كنت ألازم الفراش , سليم تمني ان يكون إماما لهذا الصرح يوما ما وقد قبل الله منه ومني لانني دعوت له بذلك قبل ان يلتحق بكلية أصول الدين ويتخرج ويعمل إماما وخطيبا بمسجد قرية الروضة الكبير..قرية تبعد عن قرية الستاموني بعشر دقائق..

ثم تم نقله بعد إحالتي للمعاش لمسجده هذا وانا ضيف عليه الآن, وضحك الشيخ بعد كلمته تلك ليقبل سليم رأسه .. وضع الشيخ سليم الشاي أمامنا ونظر نحوي وقال في حياء :

أنا كنت أود الجلوس معك أستاذ محمد لكن عندي حاجة لابد ان أقضيها والشيخ يعلم فمعذرة مني

: تفضل ياشيخ سليم تفضل شرفت بك

نظر الشيخ محمد إليه وقال له لا تنس ياسليم تمر علي أبوك الحاج ابراهيم وتحاول ترقق قلبه للصلح .

نظرت للشيخ وسألته ماذا هناك ؟

قال : مشكلة بين شابين في القرية أحدهما ضرب الآخر بسكينة كاد أن يقتله لولا لطف الله !

: وما السبب لهذا ؟

: المضروب كان يغازل فتاة يقال ان الشاب الجاني يحبها

: ماهذا الذي وصل الناس إليه ؟

المشكلة أن أهل الشاب الجاني عرضوا خمسين ألفا علي أهل المضروب للصلح والتنازل عن المحضر المقيد ضدهم من اهل المجني عليه لكنهم لم يوافقوا وراسهم وألف سيف يحبسوا الواد !

: طيب هذا من حقهم سواء الصلح بدون مال كتعويض أو به أو مطالبتهم بحقهم قانونا !

: لم نقل شيئا ولكن نحن نحاول تهدئة الوضع خصوصا لو تم سجنه فالأمر لن ينتهي لهذا الحد وربما بداية لمشاكل

Page 7

أكبر..جيل الأيام دي يامحمد يابني اللهم احفظنا!

: فعلا ...

لكن من باب الدردشة ما السبب؟

أود وسط كل الكلام المتناثر من هنا وهناك أن أسمع لك وأنت حكيم

: شوف يامحمد ..

أقل تفسير هو ان التغيرات التي طرأت علي حياة الناس وانتقالاتها المفاجئة والتي بها توترت نفوسهم سيما الحياة الاقتصادية لاشك تتأثر بها نفوس الناس, وإذا تأثرت سلبا واضطربت تلك النفوس أنت تعرف أن ذلك يتبعه اضطرابات في السلوك ثم مع الوقت يتأثر المحيط وهلم جرا...

: حقيقي لكن الناس منذ بداية الخلق في ضغوط والأمر عادة ...لقد خلقنا الإنسان في كبد...يعني مشقة وعناء...فما الفارق ؟

: الفارق في التربية , فالناس في السابق كانوا يربون أولادهم علي الأصالة والقيمة رغم كل الضغوطات, وكنت تجد

الواحد منا يجوع أكثر مما يشبع ويشبع من قطعة خبز وجبن قديم ومع ذلك يحمل مسئولية من صغر سنه ويحترم الكبير ويوقره , أما الآن فتلك القيمة لاعلاقة لها بحياة الترف أو الشدة ولذلك تجد المشكلة الأخلاقية عند هذا الجيل باختلاف طبقاتهم..

:صحيح ياشيخ محمد لكن مادور الدولة هنا الا يكون لها دور ؟

: إسمع يامحمد ..

الدولة لها إطارها التي تتحرك فيه بجمود غالبا وهي ان توفر للناس معاشهم وتحفظ بلادهم داخليا وخارجيا ولن تتدخل الدولة في كيفية تربية الوالدين لابنائهم

: أنا متفق معك لكن سلوكيات الناس المنفردة في معاملاتهم مع بعضهم تجعل هناك نمطا وعرفا به ربما تسوء حياة الناس لنعود لنقطة البداية في كلامنا وهي أن حياة الناس حين تسوء تنتشر الفردية وتضعف عندهم الشعور بالمسئولية وأشياء اخري تظهر في صورة سلوكيات سيئة كذلك..

: انت تريد قوة القانون في تربية الناس يعني ؟

: وهل نحن نعيش في دولة تركت الناس للضمير فحسب ؟

: وهل يامحمد السلوكيات الفردية السيئة هي من مشاكل الناس ام الدولة ؟

: الاثنين معا... يجب الكل في هذا المجتمع يعمل لأجل إعلاء قيمة الفرد اولا في كل شيء ثم بقوة القانون يحاسب المخالف..

:إذا أنت مع مذهب القائلين بالتغيير من القمة ؟

يعني ثورجي !!

: هههههه ثورجي إيه بس هانروح في داهيه كدا ياشيخ دا مجرد نقاش يعني

:تذكر يامحمد قوله تعالي (إن الله لا يغير مابقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم)

: والآية تشمل الكل سواءا حكومات او أفراد!!

:وأنت مسئول عن نفسك بين يدي الله يامحمد

Page 5

: يعني لسنا مسئولين عن الامة والمجتمع ونتاجه في كل شيء ياشيخ محمد؟

: أخيرا سأقول لك لو ان كل إنسان أصلح مافي داخله وأصلح من نفسه وأهله سينصلح الحال لأنه كما يقال الأسرة نواة المجتمع وهذا مانستطيعه فحسب..

: لكن يجب علينا .....

: يجب علينا أن ننتهي من الكلام فيما يعيدنا للصفريامحمد كما قلت لك ليس لنا من الأمر شيء..

قم اعمل لنا دور شاي وتعالي لأحكي لك ما تقارن بينه وبين حالنا الآن في قصة بسيطة .

الفصل الرابع

لقد كان خبر وفاة مهاب المنسي خبرا فاجعا لاهل القرية إذ كان رجلا محبوبا من الصغير والكبير, كان ذلك يوم

الخميس في شهر فبراير عام 1996م ,
نفس العام الذي مات فيه أخي حسن
رحمهم الله جميعا,كان مهاب هو صديقي
المقرب رغم أنه كان يصغرني ببضع
سنوات ,وكانت زوجته اعتماد تتخذني
أخا لها وتوقرني جدا, كل يوم نعود من
صلاة العصر نجلس في شكمة داره تحت
شجرة الكافور وسط زقزقة العصافير
ونسمات الجو الهادئة لنشرب شاي
العصاري ونتكلم في كل شيء, مهاب
المنسي كان رجلا مثقفا وكان يعمل
موظفا بالبترول بقرية أبو ماضي التي
تبعد عنا كما تعرف بضعة كيلومترات
وبها أكبر حقل غاز كما تعرف, وظفه
أبوه المنسي الاحمر كما كان الناس
يطلقون عليه من حمرة في وجهه
وصلابته وقوته, وكان تاجر أعلاف
يربطه العمل بتجار في محافظة دمياط
ومنهم والد اعتماد التي زوجها لابنه
مهاب قبل موته ليطمئن عليه, مات وترك
له بيتا من طابقين علي مساحة قيراط
وهو ذاك البيت علي الترعة هناك لو
نظرت من الشباك الآن, مهاب واعتماد
كانت بينهما قصة من الحب والود والألفة
يضرب بها المثل وكانت حياتهما دافئة

جدا, انجب منها محمود وبعده قاسم ثم مات مهاب في يوم عسير في حادث علي طريق جمصة أثناء قضائه لمهمة ما في بلد قريب, تقول زوجته اعتماد :

في هذا اليوم كان متباطئا صباحا في الخروج ليس كعادته, وظننت انه مرهق وتعبان حتي قلت له ارتاح اليوم لاتذهب للعمل, لكنه أصر علي الخروج بعدما قبل محمود البالغ من العمر أربع سنوات وقاسم صاحب الثلاث سنوات ووقف علي الباب يعانقني بشدة حتي اضطرب فؤادي, كنت طيلة اليوم أشعر بقبضة في صدري حتي اتاني خبر وفاته...كانت تشعر بأن شيئا ما سيحدث!

مهاب كان يمثل لها الوطن حيث هي غريبة في القرية لا أهل لها, ورغم اخوتها المنتشرين بكل مكان من امهات مختلفة إلا انهم لايوجد ود بينهم, والأدهي أن مهاب مات وترك اعتماد حاملا في شهر ونصف تقريبا وهذا أشد ماكنت أخشاه أن يحدث لها أي مضاعفات تزيد من المصيبة لتحولها مصائب عدة, زوجتي رحمها الله في تلك الأوقات لازمتها هي وأطفالها خصوصا بعد سفر محمود إبني للبنان وأثر هذا

علي أمه وهو ابننا الوحيد بعد عملية
بالرحم قامت بها أم محمود لتصير بعد
ذلك غير صالحة للإنجاب, الحمد لله علي
كل حال .. لكن وقوف الجيران مع
الارملة الشابة ابنة الثلاثة والثلاثين عاما
جعل منها مادة صلبة لتحمل الصعاب
والحياة وحيدة بعد رحيل مهاب في عمر
الثامنة والثلاثين, ولا أخفيك سرا بأنها
كانت تعيش جسدا بلا روح ربما لولا
وجود أطفالها لقتلت نفسها, لا تتعجب
فسر بقائها في الحياة هو وجود مهاب
معها كما كنت أري بعيني ..

كانت نحيفة الجسم طويلة كعود فرنسي,
ووجهها أبيض كالثلج , ونظرات عينيها
السوداء الناعسة اكثر ماكان مهاب
يتغزل فيها بلا حرج امامي وقت ان كانت
تأتينا بالشاي في شكمة الدار.. مهاب
كان رجلا مربوع القامة قوي البدن يشبه
والده غير أن لون بشرته كغالب الناس
من حوله , عيناه زرقاوتان لامعتان
ووجهه مبتسم حتي وقت الجد , كان
وسيما جدا رحمه الله وكان يعشق اعتماد
حد الجنون وكانت تبادله نفس المشاعر
..ا

في جنازة مهاب كانت اعتماد أم محمود تهرول بين الزروع بمحاذاتنا وشعرها منسدل لنصف ظهرها لا تنتبه لذلك ولا لشيء, والنساء يلحقن بها خوفا علي جنينها وعليها, وكنا في طريقنا للمقابرفي زحام شديد تلطخت ثيابنا من الطين,تفترسها الصدمة بمخالبها الحادة,تمزقها المصيبة بأنيابها السامة, ثم بعد حين استطاعت بقوة الله أن تتعايش إلي أن علت بطنها وماكانت زوجتي وزوجة الحاج جمعه وبعض النسوة يتخلين عنها بل كن يتناوبن عليها لمواساتها والوقوف معها في محنتها..

كنت يوم الجنازة عند عودتي أنظر لقاسم الصغير وهو يجر عربة بلاستيكية علي الأرض ويرتدي جلبابا قصيرا ملطخا بالطين لا يعرف ما يحدث ولا يدرك معني موت أبيه, بينما محمود كان يجلس ساكنا بجانب النسوة وكأنه يفهم الأحداث من حوله, كنت حزينا جدا أشد من حزني علي أخي الوحيد يوم موته..

كان مهاب يقول لي :

أنتظر يوم دخول محمود وقاسم المدرسة , واتمني ان يرزقني الله ببنت وأسميها ياسمين .

لكن سبحان الله ياتي الموت فجأة ليقلب حياة الناس وواقعهم ويبدل أمنهم واستقرارهم لحزن واضطرابات عدة, ويقطع عليهم امنياتهم, وليس الميت فحسب هو من يضيق عليه القبر بل تضيق الدنيا علي المتعلقين به من بعد رحيلهم !

منذ ذلك اليوم قطعت علي نفسي عهدا الا اترك لهم حاجة غلا وأسعي في قضائها وان أقف معهم في كل احوالهم .

بعد شهرين تقريبا وجدت الحاج عبد الكريم ومعه رجل بيده حقيبة يبدوا عليه أنه ليس فلاحا مزارعا , وأتيا إلي في المسجد ليخبرني ذاك الأستاذ بأنه محامي واسمه ابراهيم حسنين ومعه وصية من الأستاذ مهاب المنسي, دفعني الفضول لمعرفة الوصية وما بداخلها ؟

وفيها نص مكتوب مفاده أن السيد مهاب المنسي عبد الحميد المنسي يوصي بالتبرع للمضيفة بخمسة آلاف جنيه.. ونسخ من عقود لخمسة قراريط بقرية ديل البحر..

إبتسمت لذلك لانني اعرف حاجة الناس للمضيَفة التي تجمعهم في مناسباتهم

صيفا وشتاءا بعيدا عن عوامل الجو المتقلبة, أخذت منه صورة منها كان قد جهزها واعطيته وعدا بزيارته بمكتبه بعد الرجوع لزوجته ..أقصد لأرملته..والسبب أني اعرف انها لا تمتلك من المال شيء وسيدفعها هذا لبيع الارض أو جزءا منها, مع الاخذ في الاعتبار أن الأرض ميراث ومن الورثة أطفال قاصرين وفي بطنها جنين وهذا يعطل أي إجراء لميراث حتي تضع مافي بطنها , وهذا ما قد اخبرته به .

كنت علي علم بتلك الارض وايضا لا شك زوجته تعرف بها, بل كنت معه يوم ان اشتراها عام 1993م وكان جميل ابن عمي هو الذي توسط في شرائها من جيرانه وما كنا نعرفهم ...

ذهبت بعد الصلاة إلي أم محمود في بيتها, كانت واضعة المسجل علي قاعدة الشباك كعادتها من يوم مات مهاب وتشغل القرآن الكريم لا تطفئه إلا إذا نام الناس في الليل, كانت تنقي الارز في صينيه وأطفالها يلعبون حولها, مازحت الأطفال واخرجت من جيبي قطعتين من الحلوي ففرحوا بها وتعالت ضحكاتهم ,

أخبرتها بالوصية فبكت , تركتها حتي هدأت وذكرتها ببعض كلمات المواساة التي ربما هي ملَتها من كثرة سماعها وتكرارها, ولأنها لا تعرف في القوانين شيئا قالت متلهفة :

بيع الارض ياشيخ محمد ونفذ الوصية وانا معاك بأي وقت للتوقيع

ولكني أخبرتها بأن الامر سيظل معلقا حتي تضع..

وبعد عدة أيام كنت في قضاء مصلحة قريبة من بيت جميل بن عمي فتذكرت وقلت في نفسي يجب ان أذهب إليه لأسأله عن سعر الأرض كم يكون الآن بعد ثلاث سنوات؟

وبالفعل ذهبت إليه وقابلته وسألته فأخبرني بأن سعر القيراط يساوي أربعة آلاف يعني عشرين ألفا للخمسة قراريط, وقال لي بأن السعر زاد عما كان قد اشتراهم الضعف ..علمت ذلك..

أخبرته بأن نية البيع موجودة لكن في اول السنة الجديدة حتي تكون أم محمود قد وضعت وأخذت الإجراءات مسارها القانوني .

Page 40

الشيخ سليم : السلام عليكم

: عليكم السلام ماذا فعل الله بك ؟

: الحمد لله

الشيخ محمد: ها.. أخبرني سبع ولا كلب

:هههههه

: لا سبع ولا كلب

: أومال كيف ؟

: خيرا بإذن الله ...قدرت أقنع الحاج ابراهيم بالتنازل عن المحضر وانه من حقه يقبل المبلغ

: طيب تمام كدا لابد نعمل قعدة عرفية يتم فيها الاتفاق علي تحقيق السلامة والامان للعائلتين وشوف انت بقي ياسليم الخطوة دي مع اعضاء اللجنة

: تؤمر ياشيخ محمد ...اعمل لكم شاي ؟

: لا ...أعشاب يكون أفضل عندك البرطمان في المكتبة هناك

: أهو الشيخ سليم دا لم يتزوج لحد الآن يامحمد تعرف تسأله عن السبب؟

ضحك سليم وقال :

لا أعرف السبب والله غير أني لست متعجلا للزواج

الشيخ محمد يعلق ويقول : ربما لأنك لا تشتهي النساء!

يقول سليم : ممكن .

فيعلق الشيخ : وهل هذا معناه بأنك لست رجلا ياسليم ؟

فيحمر وجه سليم مع شيخه ويقول: لماذا يامولانا وهل علامات الرجولة هو أن تشتهي النساء؟

: كلام مقنع ياسليم لكن لو الرجل فيه كل مقومات الرجولة إلا أنه لا يشعر بشيء تجاه الأنثي وكأنه يقف امام جدار فهذا يثير التعجب ربما يجعل أحدهم يقول لك عليك بزيارة الطبيب لفحص هرمون الذكورة عندك ..

: كده تزعلني ياشيخ محمد

أردت أن أنقذ الموقف فتدخلت محرجا وقلت ما أجمل مداعبة الشيوخ!

فانفجرنا بالضحك حتي سعل الشيخ محمد واحمر وجهه وكاد أن يختنق, أسرع

سليم بمناولته كوب ماء فشرب الشيخ وهدأ برهة وقال :

الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين..

ثم نظر نحونا وقال: ما أجمل أن يكون سر رجولتك في أنثي تمنحها كل مالديك من شعور, فتكون لم أما وبنتا وزوجة وأختا تجد عندها كل ماتحتاجه أنت كذلك من مشاعر!

نظرت لسليم وقلت له: الشيخ محمد قرموط ويعجبك

ضحك سليم بقوة واستلقي علي ظهره وضحكت لما بدا عليه وهو يضحك وابتسم الشيخ قليلا وقال: الله يرحمك ياام محمود وكررها مرارا..

وأخذ سليم يشرح وجهة نظره بأن هناك ماكان يهتم به في الجانب العلمي والعملي وأنه ربما بعد عشرين سنة سيفكر في الزواج ..

: يالها من جلسة اجتمع فيها الدرس مع الهلس ياامولانا!

هكذا كان ردي علي الجلسة المُسلية..

Page 4

وضع سليم الأعشاب امامنا وقال :

ياتري عن أي شيء دار حواركما منذ قليل؟

فأخبره الشيخ بأنه يحكي لي قصة مهاب وزوجته..

فقال سليم: سبحان الله هذه الفتاة التي بعد أيام سيكون زواجها هي التي كانت تحملها أم محمود في بطنها..

الفصل الخامس

كما أخبرتك ياحاج جمعه لابد الطبيب يكون باله طويل ولكن انت اللي عصبي

Page 4

حبتين وموقفك لا تحسد عليه والمهم
انتهت علي خير..

لكن متي سنرجع بالست اعتماد لبيتها إن
شاء الله ؟

: غدا في الظهيرة

قالت أم ياسر:

ياجماعة لا داعي لوجودكم بالبرد طوال
الليل هنا ممكن تعودوا للقرية وانا
هاكون مع اعتماد للصبح وفي الظهيرة
تعالوا بالعربية ناخدها لبيتها , يالا يابو
ياسر انت وياسر و الشيخ محمد وتوكلوا
علي الله عندكم أنفار بالغيط الصبح ولازم
ترتاحوا شويه..

: طيب... يالا ياجماعه

: أنا هافضل هنا للصبح

: كيف ياشيخ محمد هاتنام فين ؟

:انا نايم من بعد العشاء كم ساعة ومش
محتاج انام ومش حاسس ببرد لأني
عامل حسابي ومثقل ثيابي

: ياشيخ محمد تعالي معنا ولا تقلق عليها
فهيمة موجوده بمية راجل

Page 4

: لا تقلقوا...هاقرأ شويه وأتمشي شويه ووقت الفجر أصلي بالمسجد وهاقضي الوقت مع المصحف لا تنشغلوا اذهبوا انتم ..

: اللي يريحك ياشيخ... سلام عليكم

: في رعاية الله ..

: قاسم ومحمود فين ؟

: نايمين مع فاطمة بنتي بالبيت لا تقلق

: بارك الله فيكم .

عندما كانت الساعة الحادية عشرة والنصف سمعت أصواتا في الاستقبال عاليه وحالة من الفوضي والصياح والصراخ..يبدوا أن شيئا ما حصل!

نزلت لأسفل وسط تجمعات الناس وهمهماتهم في أذني قبل أن أسألهم

: لا حول ولا قوة إلا بالله الله يرحمه

: وإيه السبب اللي يخرجه بموتسيكل في الجو دا علي طريق خطر مثل هذا؟!

أول ماسمعت موتسيكل اضطربت دقات قلبي وتذكرت الصياد الذي أوصلني

Page 4

للمستشفي, جريت نحو الحجرة لأتعرف عليه فكانت المفاجأة بأنه هو الصياد فعلا!

ياإلهي..شعرت بأنني تسببت في موته لوهلة ثم تذكرت بأن كل شيء بمقدور الله..بكيت عليه كما لو كنت أعرفه منذ سنوات طويلة.. ياربي ارحمه هذا الرجل صاحب الخير وآثر أن يوصلني علي سلامته..!!

قضيت ليلتي هذه في حزن شديد تذكرت كل من مات من أحبابي ومحضت مشاعر الموت في تلك الليلة التي جاءت للحياة فيها طفلة جديدة من صلب رجل قد مات هو الآخر..!!

أخذت أفكر في كآبة..

مالَك ياموت لا تهاب أحدا ولا تراعي ضعيفا ولا تكرم شريفا !

سبحان من له البقاء ..

في الفجر دعوت له كثيرا وتصدقت عليه بقراءة جزء من القرآن ..عشرين صفحة لأجله تنفعه في قبره بعد دفنه غدا بعد الظهر..ونويت الصلاة عليه وفعل مأستطيعه له من خير جزاءا وفاقا كما

Page47

قال الله ...هل جزاء الإحسان إلا الإحسان...

وكم تمنين اتباع جنازته لكن الوقت لن يسعفني , ففي نفس الوقت الذي سيدفن فيه كما قال أهله بعد مجيئهم المستشفي هو نفس الوقت الذي سنعود به بالست الواضعة للقرية ..

في اليوم التالي عند الحادية عشرة ظهرا عاد الحاج جمعه ومعه ابنه ياسر بالسيارة وكنا قد أخذنا الجواب بالخروج من المستشفي, كانت أم محمود ملفوفة ببطانية ثقيلة تمشي بخطوات ضيقة وتستند علي أم ياسر وأنا أحمل الطفلة بين زراعي, وفي السيارة جلست أم ياسر بجانب أم محمود في الكابينة وأحكمت إغلاق الزجاج تحاشيا لأن يتسرب البرد للأم وابنتها..

بالطبع السيارة ربع نقل يستخدمونها في نقل أدوات وأشياء وأنفار للحقل, وياسر سائق أهوج غير متزن وهذا كان يقلقني جدا علي الطريق وجعلت أنبهه أكثر من مرة, كان الجو دافئا نوعا ما لحظنا ولم يكن المطر يهطل, وكنت انا والحاج جمعه في صندوق السيارة بالخلف,

أجلس علي طرف باب الصندوق خلف الكابينة ممسكا بها بينما الحاج جمعه نام علي ظهره في أرضية الصندوق وسمعت له غطيطا كأنه لم ينم منذ شهر!

أخذت أشاهد الناس في حقولهم يمينا وشمالا ووجهي يرتطم بالهواء البارد بقوة حتي شعرت أن وجهي كقطعة الثلج, كنت أخشي عربات الكارو الخارجة فجأة من بين الحقول للطريق فكثيرا ماتحدث الحوادث بسبب ذلك, بهيمة تخرج فجأة للطريق أوعربة الكارو مع غفلة السائق ويحدث مايحدث !

حتي تسابق السائقين علي الطريق لأجل الحصول علي دور متقدم في الحمولة بلا أدني شعور بالمسئولية تجاه ارواح الناس معهم !

ياسر يقود السيارة بسرعة معتدلة علي غير عادته, وما مررت علي شيء إلا نالت انفي من رائحته, رائحة الزروع , رائحة المصرف, رائحة سفسفات المطر والبرد والهواء المحمل برائحة روث البهائم من هنا وهناك ..

وفي النهاية وصلنا للقرية بسلام..وكان رمضان ابن وهدان علي الجرار آتيا

Page 4

باتجاهنا ولما رآني نادي بأعلي صوته وقال :

ياشيخ محمد...ياشيخ محمد...كنت فين الفجر؟

فبادلته بالسؤال بصوت نحو صوته :

مين صلي بكم ؟

قال : سليم ابن أبويا الحاج بركات

: الحمد لله ..كان سليم وقتها شاب صغيروهذا في منتصف التسعينيات كما ذكرت لك..

الحاج جمعه بالطبع استيقظ منتبها من أصواتنا وعرف اننا وصلنا للقرية لما ميز صوت رمضان وهدان , الناس هنا يعرفون بعضهم تماما ولا شك صاحب الجرار يعمل في حرث الأرض ونقل المنتجات الزراعية وغير ذلك فجميع الفلاحين يعرفون رمضان وصوته المميز بنبرته القوية الحادة..

إستقبلنا الجيران كل من النسوة يردن اختطاف البنت من يد أم ياسر لتقبيلها والنظر في وجهها, وأم محمود تمشي ملفوفة بالبطانية للداخل وسط ترحاب

جيرانها , محمود وقاسم كانا يلعبان أمام البيت وعلي أفواههم بقايا طبيخ كانوا يأكلونه مع فاطمة التي تكبرهم بأكثر من عشر سنوات..كانت تلك الفتاة تسبق سنها وتقوم بأعمال البيت وتحلب الجاموسة وتكنس الدار وتنظفها وكانت تبدو كامرأة عجوز, محمود وقاسم سمعا أن لهما أختا جاءت للحياة فكانا ينتظرانها في مشهد طفولي بريء جدا ..

لما دخلنا البيت..بيت أم محمود..كنت أسبقها وفتحت الباب فسبق ضوء من شعاع الشمس للداخل ليكشف عن بعض الاشياء من بقايا الحركة منذ أمس, كرسي مقلوب وملاعق بجانب طبق به بقايا أرز, وشخابيط علي الجدران عشوائية , ورائحة البيت كانت عطنة كرائحة الجبن القديم , دخلت أم ياسر ومعها أم محمود للحجرة إلي السرير وخلفها الأطفال وكانت زوجتي ام محمود قد جاءت هي الأخري ومعها طعام أعدته لها من الصباح ولم تكن هي الوحيدة التي أعدت لها طعاما , ذبحت النساء من بيوتهن دجاجات لها وكثر رزقها ورزق أطفالها واطمأننت عليهم فتركت ام

محمود زوجتي معها واستأذنت لألحق بصلاة الظهر بالمسجد..

صليت الظهر ودعوت للصياد كثيرا بعد الصلاة وشعرت بأنني مرهق جدا أحتاج للطعام والنوم, كانت ام محمود سبقتني للدار وجهزت لي طعاما شهيا احبه, عدس وأرز ودجاجة لقيت حتفها لأجلي , تحممت بماء ساخن أزال من علي جسدي برد الليل ورطوبة الطريق وكأن جبلا أزيح من فوق صدري, وجلست مع زوجتي للغداء وكانت كثيرة الذكر لمحمود ابننا عند كل لقمة نضعها في افواهنا وتبكي !!

: يأم محمود اطمأني هو في أمان الله والله حافظه وثقي في ربنا

: ونعم بالله ياشيخ محمد بس دا إحساس الأم وعلي عيني فراقه

: اتركيه يكون له مستقبلا ويعود بإذن الله سالما غانما

: إنت السبب أنا ماكنت موافقه علي سفره نهائيا

: يأم محمود انا ماوافقت غلا لما علمت إنه مسافر لسمير المسيري ودول ناس

بالغربة من سنين وماعندي أي شك في
ان محمود هايكون مرتاح ومبسوط..كلي
كلي الله يرجعهولك بالسلامة عشان
نرتاح من بكائك..

وهذا هو الحوار الذي يتكرر كثيرا..

وأبتسم لها واداعبها كعادتي حتي أحول
تركيزها عن غياب محمود..

: يااه...الحمد لله الذي اطعمنا وسقانا
وجعلنا مسلمين..

أنا هانام للعصر وماتنسي تروحي تطمني
علي اعتماد وعيالها

: حاضر ارتاح انت..

نمت بعدما أخذت رشفة من كوب الشاي
وتركته بجانبي وكأن مهلة انتظار النوم
قد انتهت فجأة ولم يمهلني لأكمل كوب
الشاي, نمت كالقتيل حتي العصر وسمعت
صوت سليم وهو يؤذن..أعطيته نسخة
من المفاتيح ليفتح المسجد عند أي
ظروف وكان علي قدر المسئولية
ومازال..

الفصل السادس

بعدما تم بيع الأرض بعد طول إجراءات أخذت منا وقتا طويلا دفعت أم محمود لي الخمسة آلاف جنيها من مالها الخاص لأضعه في ميزانية المضيَفة, وتم حفظ باقي المال للأولاد بوصاية الأم عليهم حتي يكبروا ..

أخذت المال منها وكانت فرحة جدا
بتنفيذها للوصية, وأرسلت لأعضاء
اللجنة دعاوي شفهية مع عبد الكريم
وقتها للتجمع عند الأستاذ عبد العظيم
بدوي المشرف الزراعي والموظف
بالجمعية الزراعية, هو جاري بالمناسبة
يفصلني عنه ثلاثة بيوت فقط من اليمين,
وكنا نكلم محمود في لبنان كل يوم
خميس بعد المغرب في هاتف بيته
الأرضي وبعض الناس كذلك, ماكان هذا
الرجل يمتنع عن خدمة للناس حتي لو
حول بيته لهم سنترالا عموميا تاتيهم
الاتصالات باوقات محددة منسقة بينهم
وبين المغتربين من أبنائهم, كان الأستاذ
عبد العظيم بدوي, والاستاذ طارق مرعي
الظابط السابق في الجيش, والأستاذ
مهاب المنسي الله يرحمه, والأستاذ سالم
عبد الرحيم مدرس اللغة العربية
بالمدرسة الإعدادية, والحاج جمعه أبو
ياسر وأنا العبد الفقير إلي الله وبعض
الرجال الأخيار من القرية...

كنا نحن القائمين علي بناء المضيفة
بالجهود الذاتية , وبعد أن تجمعنا ونظرنا
فيما قد تم تجميعه من المال وجدنا أن
المال يكفي لإقامة الأعمدة وصب السقف

وبناء الجدران فحسب,وكان ينقصنا فقط الأبواب والشبابيك حتي نستطيع إقامة العزاء والأفراح تحت السقف حتي لو لم يتم تشطيبها, وكان الرأي مجمع علي ذلك ولكن فرج الله كان قريبا واستطاع الأستاذ طارق مرعي أن يتواصل مع تاجر أخشاب ببلقاس وتبرع بالخشب اللازم للمضيفة, وبعد عدة أيام اتفقنا مع صاحب ورشة علي نصف الثمن ليصنع الابواب والشبابيك اللازمة ونقسط له المبلغ علي خمس مرات..

وهكذا كانت الامور تسير ببركة الله..

بدأنا العمل في المضيفة وكان أهل القرية فرحين جدا ببدء البناء وقد كانت الاساسات منفذة بالخطوة الأولي علي أرض تبرع بها رجل من خيرة الناس الله يرحمه , كان الشباب ينقلون الطوب للداخل ويساعدون العمال , وبعضهم يملأ البراميل لهم من البحر علي الكارو ويفرغونها في براميل بموقع العمل , أما النساء وقتها بتوجيهات الرجال فكن يتناوبن علي صنع الطعام للعمال من النجارين والبنائين , كانت اعتماد وأم محمود وفهيمة أم ياسر وبعض النسوة يقفن يشاهدن العمل بالقرب من المضيفة

من علي السطوح, كانت المرة الاولي
التي شعرت فيها بأن أم محمود تبتسم
وسعيدة منذ مات مهاب زوجها !!

المضيفة كانت في هذا الوقت تحتاج
لإنارة وبلاط ومحارة ودهانات لكن كان
الأهم هو أن يكون هناك سقف يحمي
الناس من المطر وزعابيب الشتاء وكذلك
من الهواء والتراب والحر بالصيف
وحماقات الأطفال والمجاذيب ..

أول عرس أقيم في المضيفة كان عرس
ياسر بن الحاج جمعة وكان بعد إتمام
البناء بشهرين فقط, الجدران اختفت
خلف القماش المزركش والاضواء
بواسطة ماكينة التوليد وكان العرس
تحت سقف المضيفة لأول مرة بالقرية
وكنا نقول بأن هذا العمل أهم إنجاز قمنا
به لخدمة الناس...

ولك أن تعرف قيمة الشعور بالعطاء في
نظرات أهل الخير لمن بذلوا الخير لهم
فسعدوا به , العطاء والبذل له لذة لا
يعرفها إلا صاحب القلب السليم الذي
تربي علي ان يمنح الناس من وقته
وتعبه وماله ومواساته بقدر ماستطاع ,
هناك من يملك الكثير من المال والمتاع

Page 57

لكنه بخيل علي نفسه فضلا عن ان يكون بخيلا علي أحد, فتراه مضطربا بما يملكه لا يستخدمه كوسيلة للعيش بسلام وسعادة, تراه يحول أسباب السعادة لتكون سبب تعاسة ابدية يعيش بها حتي يموت بعد أن كان لايعرف عن الحياة إلا الحركة فحسب..ولا يعرف جوهرها الحقيقي كيف تعاش الحياة ولا تُقضي هباءا..

الناس كان في طباعهم الأصلية فعل الخير والتعاون عليه والفرح به لقيمة كانت متوفرة وهي التربية علي الأصالة ..

نعود للحياة التي تموج بنا موج البحر بين أفراح وأحزان وبين خير وشر يحيط بنا..

في صيف عام 1997م تفجع اعتماد فجيعتها الثانية التي كانت تضاهي فجيعتها الاولي حال موت مهاب , وكأن الراحة قد خاصمت تلك المرأة المسكينة وتبدلت حياتها الهادئة لبراكين وزلازل قاتلة مهلكة ...

أتاها الخبر بأن قاسم ملقي علي الأرض وسط الناس بالجرن الكبير, ألقت

برضيعتها دون انتباه بجانبها وهرولت
لمكان ولدها لتري نساء المنطقة
يساعدنه للنهوض من رقدته, أطرافه
متمددة ووجهه شاحب مصفر, واللعاب
يسيل من فمه!

صرخت بشدة واختطفت قاسم منهم
وجثت علي ركبتيها بلا حيلة ولا
جدوي..والناس من حولها :

اسقوه ماءا وملح

: أسقوه لبنا بسرعه كي يقيء

: أحد يجلب لنا سيارة أو أي شيء نذهب
به للمستشفي ياجماعه بسرعه...

لكن قضاء الله نفذ ولفظ قاسم انفاسه
الأخيرة بين يدي أمه والناس من حولهم
في حالة هياج وفوضي يصفقون علي
أيديهم ويحاولون بلا جدوي مواساتها...

كنت عائدا من صلاة الظهر واتاني صبي
وأخبرني الخبر فاتجهت مسرعا وشهدت
ماحدث, كان الأطفال يلعبون والجو شديد
الحرارة , ورمضان ابن وهدان بجوار
الجرار يعمل له صيانة علي طرف الجرن
قريبا من مكان الأطفال, شعر قاسم
بالعطش فذهب نحو الجرار لما وجد

زجاجة ظنها ماء لكنها كانت زجاجة جازيستخدمها رمضان في تنظيف بعض العدد والأشياء, لم ينتبه رمضان له إلا بعد أن ارتمي قاسم بجوار إطار الجرار وبجانبه الزجاجة..

تجمعت مصائب علي تلك المرأة لو كانت في امراة غيرها لماتت كمدا..فهي الأرملة والثكلي والغريبة والوحيدة,وهي أم اليتامي, وغير كل ذلك هي العاشقة التي فقدت عشيقها وهو مهاب , أنا اعرف ماكان بينهما ولذا أنا أقدر ماهي فيه وأشعر به ..

كانت ياسمين تصرخ علي زراع فاطمة والكل يحاول أن يهدئ أم قاسم ويواسيها وهي تصرخ في جنون , تيبس لساني وقتها وشعرت بأن أي كلام أقوله لها لا يطفيء نار حرقتها في قلبها علي فلذة كبدها, غير أني حاولت مرارا حتي تعبت وهدأت مضطرة بعد إرهاقها ونفاذ طاقتها وأغمي عليها وحملتها أم ياسر للبيت..

جهزت الطفل للدفن وخرجنا لدفنه مع والده في نفس المقبرة التي حالما قمنا بفتحها وكأن مهاب مات مجددا, لا أستطيع وصف المشهد لك !

نام قاسم في حضن أبيه بعدما ترك حضن
امه للأبد, ذهب قاسم الطفل البريء
الوديع الذي كان دائما في حجر والده
وكأنه اشتاق لحجر أبيه فقرر الذهاب
إليه بعد سنة من فراقه !!

ولك أن تتخيل أيضا تلك الطفلة التي أتت
للدنيا لم تعرف لأبيها شكلا ولم تذق
حنان حضنه ولا مداعبته!!

مادة الحزن عششت وباضت وفرخت
ببيت مهاب بعد رحيلة, وكنت أنا الصديق
أجعل من نفسي كل احد لهم برا بهم
وبمهاب , وكأنني حامل مادة السعادة
ألقيها علي مادة الحزن عندهم كي
أخمدها ولو قليلا كما يطفيء الماء النار!

في المقابرلم ترجع تلك الثكلي إلا
محمولة بين أزرع النسوة بعدما أغشي
عليها للمرة الثانية وفقدت الوعي, كنت
أخاف ان تلحق بزوجها وولدها قاسم هي
الأخري من شدة حزنها..

....

في ذلك الوقت دخل الشيخ سليم علينا
وقطع حديث الشيخ محمد واخبرنا بأن
أذان المغرب قد وجب , فقمنا لنتأهب

للصلاة , فتح سليم المنبر وقام بتشغيل الراديو داخل الميكروفون , كانت الإبتهالات تملأ الأجواء في القرية بل وبكل مكان من كل مسجد, طقس له عند كل واحد منا طابعه الخاص, الشيخ نصر الدين طوبار بصوته الملء بالشجن والخشوع يأسرني

يا مالك الملك

أنت المستجار به

من ذا له لائذ بالباب ناداك

..مسبح بك

مملوء بحبك

..مشغوف بقربك

مشغول بنجواك

راض بما أنت ترضاه

ومتخذ إليك.. منك.. طريقا من عطاياك...

كنت منذ صغر سني وانا أحب صوت تلك الإبتهالات عند الفجر والمغرب خاصة بالقرية, كانت جدتي تكثر من البكاء والدعاء لكل من يأتي بخاطرها في تلك اللحظات

وكانت ومنها عرفت لاول مرة إسم ذلك الشيخ ومن يومها تعلقت به وبسماعه..

صلينا المغرب خلف الشيخ سليم بركات وهلت بركات صوته علي مسامعنا بصوته الندي وقرائته العالية المقام وكان يقرأ بنا من سورة المؤمنون ...

يوم نطوي السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين..ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون..إن فى ذلك لبلاغا لقوم عابدين..وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين...

إلي آخرالسورة ...

بعد الصلاة دلفنا مجددا لحجرة المكتبة وجاء محمود ابن الشيخ محمد ينضم إلينا وجاء حسان صبحي وكثر العدد وأخذنا نمزح ونضحك لما تلاقينا ثم بدأ الكلام عن الغربة واتخذناها مادة للحديث الذي لم نمل منه في وجود الشيخ والأصدقاء..

محمود محمد علم الدين بعد عودته من لبنان وبعد غربة دامت عدة سنوات قطعها

بزيارات عدة استقر في القرية ببيته
الجديد مع زوجته وبناته بجانب والده
الشيخ محمد, وحسان صبحي بعد عودته
من اليونان بزوجته إبنة زميل له في
العمل وأطفاله وإقامتهم ببيت العائلة..

كانا مثالين لعنصر شبابي يراه الناس
مكافحا لأجل لقمة العيش وبناء مستقبل
أفضل ومع أنهما مختلفين في المظهر
والمضمون إلا أن شيئا ما واحدا جمعهما
علي رأي واحد وهو أنهما لم يستطيعا
العيش بتلك النمطية التي فرضت عليهم
بحكم عادات القرية واشياء أخري..

محمود ابن الشيخ محمد يتاجر بالأعلاف
في أسفل داره ويشارك بعض أصدقائه في
تربية العجول, وحسان لم يبني بيتا جديدا
واكتفي بشقته الواسعة في بيت والده
المسن ومازال منذ سنتين لا يعمل في
شيء مطلقا وكان أشد الصديقين كآبة من
رتابة الحياة , وكان يقول :

لم أقرر حتي الآن إن كنت سأسافر أم لا
وللأسف الشديد تأتيني الأخبار بأن الحال
الاقتصادي باليونان في الهبوط , ثم حتي
لو استقريت هنا ماذا علي فعله وانا لم
أستطع التفكير في أي شيء أعمل ؟!

يرد محمود ويقول : المشكلة ليست في العمل ياحسان فأنا الآن أعمل في بعض التجارة والحال ماشي لكن هناك في الغربة حياة تعودنا عليها وهذا أهم لأننا الآن كأننا غرباء ..

يرد الشيخ محمد ويقول: مهما الواحد فينا لف العالم ووجد تحضر وثقافات أخري ننبهر بها لكن هناك معني خفي حقيقي لا نشعر به إلا بوطننا الأصلي..حضن أي امرأة قد يشبعك من أي اتجاه بينما حضن الأم لا يعوضه أي حضن..كذلك الوطن.

: صحيح يامولانا والله أنا سافرت الكويت وعشت فترة طويلة جمعت مالا كثيرا وربحت الكثير لكن العجيب أنني كنت أشعر بأني آلة عمل فحسب ليس فيها حياة!

لم أشعر بالحياة إلا في بلدي حتي ولو كانت مظاهر تلك الحياة فيما نتمرد عليه الآن!

: وانت ياشيخ سليم أليس لك رأي ؟

: رأيي أننا في الدنيا غرباء وأن موطننا الأصلي في الجنة , وأن كل مانحن فيه غربة طالت أو قصرت ..

Page 65

عش في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل..

صلي الله عليه وسلم...

هكذا كان تعليقنا جميعا علي رد الشيخ سليم ..

يوجه محمود سؤالا لوالده:

ياشيخ محمد انت من العصر بالمسجد مش هاتتغدي نقوم بنا ع البيت والرجل المحترم دا معانا؟

يقصدني بالطبع..

رد الشيخ وقال: انت تعلم اني لا آكل إلا بعد العشاء طعاما خفيفا لأن الصحة خلاص...

: لساك شباب ياشيخ محمد فيك ألف عافية..

هكذا كان ردي...ورد حسان فقال : الشيخ محمد محتاج عروسة..

ضحك محمود وقال : والله وانا موافق

علق الشيخ علينا وقال : العروسه لازم نشوفها لسليم ..

Page5

رد سليم وقال: يااااه يامولانا لساك حاططني في دماغك بالموضوع دا..لما ربنا يؤمر.

سأل الشيخ محمد وقال: الباشمهندس كان موجود في الصلاة معانا؟

رد سليم : تقصد محمود مهاب؟

: أيوه طبعا

:أعتقد صعب يتواجد في صلاة المغرب لأنه بيكون في طريقه في العودة من عمله الجديد بجمصه..

: آآه الله يوفقه..

أظن هاتحضر فرح ياسمين يامحمد الخميس القادم؟

: طبعا ان شاء الله لابد أكون موجود معكم

أنا هاضطر يامولانا أستأذن ويو الخميس نتقابل في زفاف ياسمين ..

تعالي ياحسان وصلني للطريق .

: لا تنسانا يامحمد في رعاية الله

....
....

الفصل السابع

الخميس شهر أغسطس عام 2010

عدت لقرية الستاموني لحضور زفاف ياسمين مهاب ومقابلة الأصدقاء والشيخ محمد مجددا, الجو حار والعرق يسيل مدرارا, التنفس فيه صعوبة كأن الناس يتنفسون نارا وليس هواءا , الساعة الواحدة والنصف بعد صلاة الظهر, هاتفت حسان وأعلمته بأنني علي مشارف القرية وبالفعل قابلني وذهبنا سويا لبيت الشيخ محمد, كان بيته رطبا وجوه لطيف , وصوت إذاعة القرآن

الكريم تملأ المكان روحا , مكتبة معلقة علي الحائط بها كتب كثيرة في الأدب والتاريخ وبجوارها مكتبة خاصة بالفقه والتفسير والحديث والاصول لمذاهب عدة, مكتبة عظيمة يامولانا ماشاء الله..

: البيت بدون كتب مقبرة كما أن الإنسان بدون إيمان هو قبر متحرك لا روح فيه..

: أحسن الله إليكم

قمت وتصفحت بعض الكتب الأدبية ووقعت عيني علي مؤلفات مصطفي صادق الرافعي رحمه الله ودار نقاش حوله وحول معاركه الأدبية مع عمالقة الادب كالعقاد وطه حسين أحمد لطفي السيد وشرقنا بالحديث ونحن نشرب الشاي..

حتي خرجنا للعرس ..

سألت عن سليم فقيل لي بأنه يحرم الموسيقي ولا ينبغي له أن يتواجد وأنه سيكتفي بتهنئة محمود مهاب فحسب..

سألت الشيخ محمد وقلت له ألم تكن مثله في تحريم الموسيقي وما الفرق بينكما وقد خرجتما من نفس الكلية مع فارق الزمن , وتجتمعان بمسجد واحد؟

قال الشيخ: هل نحن الآن نعزف موسيقي أو نذهب لسماع موسيقي ؟

قلت : لا

قال : ركز فيما أنت ذاهب إليه وهو تهنئة الناس ومشاركتهم فرحتهم..

لم يسعفني الوقت للرد وأنا أحب النقاش جدا سيما مع الشيخ..

كان الشيخ يرتدي جلبابا أبيض اللون ناصع البياض كلحيته, وحذاءا لامع السواد وقال لي عند خروجنا : الله يصلح حاله محمود ابني جابلي اتنين من النوع دا

وكان يلبس علي رأسه طاقية بها ثقوب مزخرفة بيضاء اللون أيضا..بدا وجه الشيخ منيرا في النهار لما دققت النظر فيه..مشيته ليست بطيئة ولا سريعة كمشية شاب يتسلي بالمشي إلا أنه يمشي كذلك مضطرا بحكم ماتفرضه طاقته وعافيته وهو قد تجاوز ثلاث وستين سنه..

حسان يلبس نظارة شمس علي عينه ويلبس قميصا أبيض مفتوح الأزرار من علي الصدر وصدره عريض كمنكبيه,

شعره ناعم يمشطه للخلف, لون بشرته قمحية, طوله معتدل ووزنه لا يزيد عن السبعين كما خمنته, ويلبس بنطالا من القماش أسود اللون وحذاء مدبب لامع أسود اللون أيضا , بينما محمود ابن الشيخ كان يلبس جلبابا لونه غامق لكن فيه لمعان ومزركش ع الصدر وحذاء يشبه حذاء أبيه, مليء البطن وشعره أسود خشن ولون وجهه قمحي أيضا..

وكنت أنا ألبس قميصا أسود اللون مشمرا الاكمام وبنطالا لونه كلون الغمام المليء بالمطر, وحذاء في قدمي من القماش ليس من الجلد يقولون عنه (كوتشي) كان لونه أسود وله رباط ونظارة النظر التي تلازمني حتي النوم..

دخلنا الساحة أمام بيت الأستاذ طارق مرعي والد العريس وكعادة الناس تكون الحفلة عند بيت العريس, بالنهار غالبا يكون هناك مايسمي بحفلة بلدي أو مزمار بلدي تتراقص فيه الخيول وسط دائرة بشرية علي الطبل والمزمار, وبالليل تكون الحفلة الكلاسيكية التي يجلس فيها العروسان امام الجمهور ...

الأطفال متجمعون في ذلك المكان
والتراب يملأء الجو من تحركات أقدام
الخيول ومن شقاوة الأطفال , مجاذيب
القرية والقري المحيطة تجمعوا كأن أحدا
منهم تطوع بإرسال كروت دعاوي لهم ,
وكأن حفلا آخر موازيا لحفل الليلة
يخصهم أيضا, رائحة اللحم والطعام هي
التي جلبتهم ؟

أعتقد علي صوت المزمار الذي ينقله
الهواء عبر فضاء سماء الحقول فينتشر
بصداه لأبعد مدي...نعم هو ذلك السبب ,
يسمع الواحد منهم فيعتريه رغبة في
الوصول لمصدر الصوت كمن نادته
النداهة كما في الحواديت القديمة ,جلسنا
جميعا بعد أن صافحنا أصحاب العرس
وبعض الناس, كان من بينهم بالطبع
الأستاذ طارق مرعي كان رجلا له هيبة
وسط الناس , صافحنا شابا عشرينيا
يرتدي بدلة وكرافته ظننته العريس لكن
الشيخ محمد قال لي هذا المهندس
محمود مهاب مهندس المستقبل, عانقته
وهنأته بحرارة كأني أعرفه..

همست للشيخ وسألته: هل درس بكلية
الهندسة ؟

: قال نعم مهندس مدني جامعة المنصورة, وعروسة الليلة ياسمين اكتفت بثانوية فنيه قسم زخرفة..

لفت نظري شاب غشيم يمسك بعصا ويضرب الأطفال كلما تجمعوا نحو مكان الطعام وهو سرادق كالخيمة بجوار البيت..بيت العريس..

ورأيته يروع المجاذيب وكان أحدهم يبدوا عليه الشر وكأنه يريد أن يقضمه بأسنانه!

مر وقت بسيط وسكتت الفرقة عن العزف المثير للصداع ونادي أحدهم

: البوفيه ياحضرات

قام الناس وقمنا معهم لتناول الوليمة وكان عيبا أن يرفض أحد الدعوة..

....

بعد العشاء ذهبنا مجددا للمضيَفة حيث حفل الزفاف هناك بناءا علي رغبة أم العروسة ، كنت صرحا انيقا بتشطيب رائع مكتمل, الكراسي ملأي بالناس وبعضهم واقفون بفراغات المكان ينتظرون مجيء العروسين من الكوافير,

عائلة أهل العريس راقية , يظهر من ثيابهم وعطورهم وحتي أشكالهم, الفتيات تاركين شعورهم منسدلة خلف ظهورهن تتمايل مع هواء المروحة, الصوت بالداخل يرن بصداه مع الموسيقي الصاخبة الخاصة بالأفراح, الأضواء بالخارج حتي الطريق الرئيسي, وبعد دقائق سمعنا كلاكسات السيارات فعرفنا بقدوم العروسين وخرجنا للإستقبال وبقي أصحاب الكراسي أماكنهم خوفا من الاحتلال, كانت العروسة غاية في الاناقة والجمال ممسكة بيدي زوجها في خطوات بطيئة وسط الناس باتجاههم للداخل, لاحظت أعين الشباب تزيغ علي نهود الفتيات وأردافهن, لعل هذا ما زاد به العدد من كل اتجاه!

الفتيات من العواصم والمحافظات البعيدة جئن مع أهلهن لعرس قريبهم بالقرية كأن كائنات اخري هبطت علي شباب القرية المراهقين فنالوا من جمالهن مجانا, وضاجعوهن في مخيلاتهم مرات ومرات ..

بدأ الحفل والرقص والتصفيق...جاء الشيخ بجانبي وهمس بأذني وقال هذه أم العروسة وأشار بيده علي امرأة بجانب

العروس فوق المنصة, دققت النظر وأنا أستدعي كل ماحكاه الشيخ عنها,
خصلات شعر هاربة من تحت حجاب الرأس وملامح ناضجة وتفاصيل تدل علي أن خلفها جمال هارب, نحيفة لحد أن الرجل يتمني لو تحمل اللحم قليلا ، لعل الأيام أكلت من أطرافها مع كل مامرت به وهي تربي عيالها ليكونوا أحسن الناس ,كانت تبتسم مرة وتقهقه مرة وتظهر علامات الكآبة مرة, تتقلب بين مشاعر الحياة والموت في موقف واحد..

صعدت فتاة ترتدي البادي والجينز الضيق علي المنصة تتراقص ومانزلت عينها عن حسان, يبدوا لها ان حسان لم يتزوج قط , بل يبدوا أنه من خارج الدولة لا من القرية نفسها ولعلها تتغزل فيه من خلال حركات رقصها الداعية لرجولته..

جاء حسان بجانبي وسألني سؤالا بريئا وقال:

ما أمر تلك الفتاة التي تحملق في طوال الوقت ؟

قلت له : لاحظت ذلك يا ألباتشينو

انفجر حسان بالضحك وعلا صوته حتي شعرت الفتاة بأنه يتغمز عليها فتبدلت حركاتها وتحولت نظراتها, ثم بعد دقائق نزلت واختفت بين الجالسين وتعجبت من أن حسان يبحث عنها بعينه الرادارية بمحيط المكان!

: إهدأ ياحسان يازوج اليونانية..

: إقترب محمود محمد وقال: لعلك تريد أن تجرب مرة أخري ياحسان؟

: إنزعج حسان من كلمته وعلم بأن نظراته مراقبة من أكثر من واحد وقال له

: المكان ملفت وحركات الناس و..

ضحك محمود وقال حركات الناس أم حركاتك أنت؟

ضحكت لكلام محمود وتعبيرات وجه حسان المزنوق كفأر مبلل بالماء

خرجنا بعدما قضينا ساعة ونصف نشم الهواء بالخارج ونبتعد عن الصخب والمكبرات الصوتية قليلا...خرج وراءنا محمود مهاب والشيخ محمد ووقفنا أمام المضيفة بعيدا عن ارتفاع الصوت بحيث نسمع حديثنا ..

: عقبالك يابشمهندس

: عقبال أولادكم جميعا...الشيخ سليم فين؟

الشيخ محمد : عارف انه ملوش بالأجواء دي

محمود: حسان بيفكر يتجوز تاني ..

: يتجوز ماهو يعتبر ماتزوج بعد

: كيف يعني ماتزوج؟

: اللي مايتزوج مصرية لم يتزوج

ضحكنا وتعجب حسان من الكلمة وأراد التفسير أكثر

: يعني إيه الكلام دا يامولانا ؟

: يعني انت خلعت ياناصح وتزوجت عرق أجنبي..

قلت : حقيقي هناك اختلاف بين جنسيات نساء العالم لكن تكون المرأة كزوجة أعتقد واحد من حيث...

قاطعني محمود: لا تتفلسف واسألنا احنا..

: قل ياحكيم عصرك وأوانك

قاطعنا الشيخ محمد وقال: هناك فعلا اعتبارات بيئية وثقافية تؤثر في طباع المرأة وعليه فهذا يكون له تأثير علي كل شيء من حولها من خلال رؤيتها وفهمها وأفكارها...يعني مثلا الست المصرية يصعب لحد أن يكون مستحيلا عند بعضهن أو غالبيتهن أن تسمح للرجل بالتعدد.. وغالب الرجال يعدد في السرأو يتسبب في خراب البيت الاول لأجل ذلك وقليل من يتجاوز هذا..بينما تجد في مجتمعات أخري المرأة علي العكس ترضي بأن تسكن معها ثلاثة غيرها..

: لكن أعتقد هناك ماتفرضه البيئة والمجتمعات علي الشعوب وهذا لا علاقة له بالرضا تماما وأي امرأة تتمني لو تمتلك الرجل وحدها وهذه غريزة...

كان هذا رأي حسان..

أما محمود مهاب فهو يستمع ويبتسم فحسب لما هو جديد عليه في عالم لم يدخله بعد وهو عالم النساء..

يقطع الحوار صوت أحدهم يقول: الغدا فين يامحمود؟

يلتفت الشيخ محمد ويقول : أهلا ياعم عبد الكريم انت فينك يارجل ؟

فيرد محمود: كان عنده نشره تقريبا بيذيعها وانشغل عن الوليمة ...

مازالت الحمارة العرجاء معك منذ زمن بعيد؟

: ياشيخ دي الحماره رقم مئة في حياتي وبعدين أي حماره بتيجي سليمة عندي المرض يمسكها مش عارف السبب ..

ضحك الجميع وعلق محمود: اشتري حمار ذكر بعد كدا

يلتفت الرجل عن الكلام الذي رآه بلا فائدة ووجه السؤال لمحمود مهاب : فين الغدا ؟

: الغدا عند العريس ياعم عبد الكريم انت ناسي ؟

: لا مش ناسي وانا ليا غدا عند العريس وعندك..

: من عنينا ياعم عبد الكريم..

وقفنا بعض الوقت للترفيه بكلامنا هذا ثم تمشينا قليلا وتركنا محمود مهاب وعاد

للحفلة, مررنا امام بيت مهاب ووقف الشيخ أمام شجرة عارية وقال :

هذه شجرة الكافور التي كنت أجلس تحتها انا ومهاب, كانت مورقة تلقي بظلالها علي واجهة البيت, أما الآن فلا ظل لها بالنهار ولا شكل وأصبحت من الحر والغبَرة تقاسي الحياة..

قلت في نفسي سبحان الله حياة الشجرة وتقلباتها تشبه قصة صاحبة البيت..!

سألت الشيخ محمد سؤالا:

هل تستطيع المرأة أن تظل بلا زوج لمدة كهذه التي عاشتها صاحبة القصة..أربعة عشر عاما علي ما أظن!

: نعم هناك من تستطيع وهناك من لا تستطيع وتظل رهينة حبس انفرادي بداخل نفسها أشد عليها من سجن المكان والجدران..وكل امرأة لها خصائص نفسية وحاجة ملحة للرجل فإما تستطيع كبتها لتقدم الأهم والأولي كما تري حياتها وتجربتها التي تعيشها, وإما أن تجعل مطالبها أهم شيء لو ستترك أبناءها للمجهول, وهناك نساء بين بين...

يعني هل تعتقد أن أم محمود أرغمت علي ذلك ؟

كلا بالعكس كما قلت لك من قبل بأن تعلقها بمهاب كان تعلقا يشبه تعلق الغصن بالشجرة لو انقطع عنها فلا حياة فيه وسيجف وييبس..

: نعم لكن هناك بعض النباتات تستطيع الغصون إن قطعت من الأصل أن تنبت وحدها في بيئة أخري يامولانا!

: عليك أن تضرب بهذا مثلا لبعض النساء ممن أشرت إليهن في حديثي آنفا وهن الأعلم بتجاربهن واحتياجاتهن ..

ولك ان تعلم بأن هناك من رجال القرية من كلفني بالوساطة لأطلب يد أم محمود لهم..واحدا تلو الآخر..وكنت أتهرب منهم حتي ظن البعض أن لي فيها حاجة وأنني سأطلبها لنفسي.. وهنا تدخلت مباشرة لأقطع أي ظنون بأن كلمتها بالموضوع وفور ما فاتحتها انقلبت عليَ بشراسة لم أعهدها , والسبب أنها تعرف بأني أفهم طبيعة علاقتها بمهاب ورغبتها في اعتزال الرجال وقد استطاعت ذلك..

بل جاء وقت وتكلم البعض في القرية
بأنني تزوجتها في السر حتي لم يعرف
أحد...وتعجبت جدا ما الداعي لأن أفعل
هذا إن وافقتُ علي أن أتزوجها ووافقت
هي بدورها إلا أن نعلن للدنيا كلها !!

الأمر كان سخيفا لمجرد الظن فيه لأنه
ليس منطقيا بالمرة..كانت زوجتي
موجودة لم تمت ..وعرفت بما يقال
وكانت حكيمة رحمها الله فلم يؤثر فيها
أي كلام عبثي بل كانت ترد علي من
يقول هذا بأنها لا مانع لديها لأن اتزوجها
فماذا يدفعه للسرية والكتمان ؟!

هذا ما أخمد نار الشائعة التي جعلتني
رغما عني وخوفا علي سمعتها أن أنقطع
لعدة أشهر عن الذهاب لبيتها والاطمئنان
عليها وعلي أولادها ,وكنت أكتفي
بمعرفة ذلك من خلال أم محمود زوجتي
!..

علي الرغم من ان موضوع الزواج
السري لم يكن من أعراف القرية ولكن
تأثر الناس بما كان من أهل المدن
المجاورة لنا خصوصا مدينة جمصة
وهي مصيف المحافظة ويفزع الكل إليها
بالصيف وهناك كما تعلم الشقق

المفروشة والإيجار وتوافد الغرباء مما
يسهل علي من يريد هذا الفعل أن يفعله!

أما في قرية مغلقة علي نفسها تعداد
سكانها خمسة آلاف نسمة غالبهم
تربطهم أنساب ومصاهرة فهذا غريب !

ومع كل هذا التفسير والتحليل يفوت
العمر وتتصرم الأيام بلا رجعة, ولو
نظرت مدققا لعقارب الساعة لوجدت
حركة عقرب الثواني للامام لن تعود للأبد
!!

فلا ينفع الناس إلا حاضرهم ومناشدتهم
لحياة طيبة جديرة أن تعاش ..

أنت تري الآن لقد كبرت المرأة وشارفت
الخمسين وكبر أولادها وتزوجت البنت
ولن تتوقف الحياة علي شيء, بل تتوقف
فقط عندما نوقفها نحن بالوقوف عند
نقطة وعدم التحرك لإنتاج كل ماهو نافع
لنا في حياتنا..تماما كأمة تعيش التخلف
تحت أقدام الأمم وتتغني بتاريخها وكأنها
توقفت واكتفت بالبكاء علي الماضي
..ومن فضل الله علي الإنسان أن جعله
قادرا علي خلق علاقات وأحداث جديدة
لاستمرارية الحياة ..

نتمني للناس جميعا الخير يامولانا.

****

****

****

المؤلف/ محمد إسماعيل شريف مواليد1983
محافظة الدقهلية / مصر

الاتجاه واقعي

مؤلفاته:

رواية / وسقطت اوراق شجرة الكافور...

مجموعة قصصية بعنوان/ مشاعر شتاء عن المكتبة العربية للنشر عام 2019 متوفرة إلكترونيا علي موقع نيل وفرات وموقع العبيكان..

قصة / ضجيج تكات الساعة عن دار يافي للنشر والتوزيع 2018 ضمن كتاب داستان بالمشاركة مع كتاب عرب ومصريين

قصة / نساء تهوي الدراما ضمن كتاب خبز تحت الحصار عن دار سكرايب2019 مع كتاب عرب ومصريين...وكل تلك الاعمال شاركت بمعرض القاهرة الدولي للكتاب ومعارض دولية

رواية ضخمة بعنوان /عزبة الخواجة ستصدر قريبا بإذن الله قيد النشر..



كتاب مقالات وقصص وخواطر بعنوان/ تحت أضواء القمر سيصدر قريبا قيد النشر

واعمال مهمة أخري قيد الكتابة والله المستعان.

